الذات خارج خطة السلطة:
– تأملات في المقاومة الإثيقية لدى ميشال فوكو –

عبد الله بوســـــنـــــيـــــنـــــة

باحث في سلك الدكتوراه، تخصص الفلسفة السياسية

إشراف: د. محـــــــــــمد مزيان

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية جامعة ابن طفيل القنيطرة

المملكة المغربية

الملخص:

يعد ميشيل فوكو من أبرز المفكرين الذين أعادوا التفكير في علاقة **السلطة بالذات**، فبالنسبة إليه، فالسلطة ليست مجرد جهاز قمعي أو مؤسسة مركزية، بل شبكة معقدة من العلاقات تنتشر في كل مستويات المجتمع، وتنتج **أنماطًا معينة من الذوات** عبر الخطابات والممارسات والانضباط. غير أن فوكو لا يرى الذات خاضعة كليًا لهذه السلطة؛ إذ يفتح مجالًا لفهم **الذات كحقل للمقاومة** أيضًا.

في أعماله المتأخرة، خصوصًا في (تأريخ الجنسانية و تأويل الذات)، ينتقل فوكو من تحليل آليات السلطة والمعرفة إلى التفكير في **كيفية تشكل الذات الإثيقية**. فالمسألة بالنسبة له لم تعد فقط كيف تُنتج السلطة الذوات، بل كيف يمكن للذات أن تعمل على نفسها، وأن تُعيد صياغة علاقتها بالسلطة عبر ما يسميه **(ممارسة الحرية)**. هذه الممارسات لا تعني رفض السلطة كليًا، بل التعامل النقدي معها، وفهم حدودها، والعمل على بناء أشكال جديدة من العيش تتجاوز السيطرة والتطبيع.

تكمن أهمية **المقاومة الإثيقية** عند فوكو أذن، في كونها ليست ثورة سياسية تقليدية، بل **تحولًا ذاتيًا**. والفعل الإثيقي في تصوره، هو نوع من **الاهتمام بالذات** التي تجعل الفرد قادرًا على إنتاج ذاته بحرية ومسؤولية، بعيدًا عن الأطر الجاهزة التي تفرضها الخطابات السلطوية. إنها مقاومة يومية، صامتة أحيانًا، لكنها تُعيد تعريف الحرية ليس كحق مجرد، بل كممارسة مستمرة لإبداع الذات.

وبذلك، يمكن القول، إن فوكو يقترح تصورًا للذات خارج خطة السلطة بمعناها الحتمي، من خلال إمكان بناء **ذوات نقدية** تمارس حريتها ضمن شروط الواقع دون أن تُستوعب كليًا فيه. فالمقاومة الأخلاقية عنده ليست خروجًا من السلطة، بل **شكل من أشكال العمل داخلها ومن خلالها** لفتح إمكانات جديدة للوجود الإنساني.

الكلمات المفتاحية: **ميشال فوكو – السلطة – المقاومة – الذات – الاثيقا.**

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

لقد انبثقت فكرة المقاومة الإثيقية للسلطة الحيوية في فكر ميشال فوكو، من صميم انفتاحه على الثقافة اليونانية والرومانية، وذلك من خلال اكتشافه لأهمية مبدأ الاهتمام بالذات " le souci de soi " الذي أنتجته هذه المرحلة باعتباره نمطاً من بناء العلاقة بين الذات ونفسها على نحوٍ لم تكن فيه تحت المحددات الخارجية. ولعل هذا الموقف الإثيقي تجاه الحياة لدى الإغريق والرومان، هو ما جعلنا نفترض بأن نقد فوكو للنموذج الحديث – الذي أقبر صيغة الاهتمام بالذات واستعاض عنها بفرض مناهج معرفية حوّلت الأفراد من وضع الذات إلى موضوع للمعرفة — هو نتيجة انبهار بهذا الموقف. لذا فقد أكدّ بالقول بأن " اللحظة الديكارتية (...) قد لعبت بطريقتين على إعادة تقسيم وتمجيد مبدأ اعرف نفسك فلسفياً، والبخس والحط من قيمة الاهتمام بالنفس."[1] وعبر هذا التفاضل بين معرفة الذات والاهتمام بها، يكون الفكر الحديث في تصور فوكو قد أبان عن رغبته في جعل الذات مجرد كيان هش تُرتسمُ عليه هُويات جاهزة تمنحها السلطة عبر إقامة نظام المراقبة والتحكم في الحياة الخاصة للذوات.

تتبدى هذه العودة/اللقاء الذي أقامه فوكو، بشكل جلي ضمن دروس **تأويل الذات** (1981-1982)، حيث استفاض في كشف الأساليب الفنية الخاصة بالاهتمام بالذات التي ميّزت هذه الحقبة. فمنذ أفلاطون مثلا، يكشف فوكو على أن أهمية الاهتمام بالذات كانت أرضية مهمة لإعداد الشباب لممارسة الحكم، ذلك ما يعكسه قوله: " يمكننا أن نرى في ألسبياد أن الاهتمام بالذات بشكل واضح، مرتبط بالحلم السياسي لشاب أرستقراطي : إذا كنت ترغب في حكم الأخرين، يجب عليك أولاً أن تهتم بنفسك."[2] و واصل فوكو تقصّيه لهذه الثقافة التي تُعنى بالذات إلى حدود القرن الثاني بعد الميلاد؛ وبتركيزه على هذه اللحظة يكون قد أقام توكيداً على وجود انتكاسة طالت هذه التقنيات في ظل قبضة الكنيسة و السلطة الكلاسيكية على الذات. وذلك وفق مسلسل طويل من عمليات الإخضاع لمدونات توجيهية تُمحي كل أثر فردي في تشكيل الذات لذاتها. لذا، يكون استحضار فوكو لهذه النماذج السابقة على مجيء المسيحية هو فرصة لإنتاج مبدأ قديم يقاوم به الصيغ المعيارية الحديثة التي أرهنت الذات لعلاقات السلطة والمعرفة. وبذلك تكون هذه العودة مناسبة لـ " تشكيل وتطوير ممارسة للذات تهدف منها إلى أن تكون هي نفسها صانعة لجمال الحياة الخاصة بها."[3]

يجد فوكو في هذا الثقافة التي تُعنى بالشكل الإثيقي للحياة، سمة فلسفات للهروب؛ وما يجعلها كذلك في نظره، هو انتاجها لمبدأ الاهتمام بالذات كممارسة حرة تسمح بأن ينفتح الأفراد على ممكنات الحياة المتنوعة وغير "المُمعيرة" عكس ما ستبلوره المسيحية لاحقا في شكل نمط من التزهد الموجّه سلفاً لغايات لا فردية؛ ولعل هذا هوما يعكسه قول فوكو: " بالفعل، ليس هنالك في الثقافة القديمة، وفي الثقافتين اليونانية والرومانية، اهتمام بالذات منظور إليه بوصفه قانوناً عاماً ينطبق على كلّ فرد مهما كان نمط الحياة التي يتبعها، إن الاهتمام بالذات اختيار في نمط الحياة."[4] ومنه تكون غلبة الأدبيات للذلتية القديمة هي تملّك الذات لذاتها بعيداً عن وضع البقاء تحت تصرّف وتوجيه قوى خارجية.

---

[1]) فوكو (ميشال)، تأويل الذات، دروس ألقيت في الكوليج دي فرانس 1981-1982، ترجمة الزواوي بغوره، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 2011، ص 23.

[2]) Foucault (Michel), Qu'est-ce que la critique ? suivi de « la culture de soi », Vrin, p. 90-91.

[3]) فوكو (ميشال)، هم الحقيقة، مختارات، ترجمة مصطفى المسناوي وآخرون، منشورات الاختلاف، الطبعة الجزائرية الأولى 2006، ص. 107.

[4]) فوكو (ميشال)، تأويل الذات، مرجع سابق، ص. 112.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

يسعى فوكو إذن، عبر التذكير بقيمة هذا المبدأ إلى إعادة تشكيل العلاقة بالذات في الفكر المعاصر على خطى بديلة عن تلك التي أقرّها النموذج المعرفي الحديث، وذلك عن طريق تقويض النظريات التي تقدم الذات كموضوع؛ بالإضافة إلى رغبته في دحض الوساطة السلبية للمسيحية التي أقامت معيارية قيمية في مجال الأخلاق، تحكمها قواعد للسلوك الإنساني وفق منطق القبول والرفض، باعتبارها ثنائية للتصنيف والتحديد أساساً.

يذكرنا هذا التقويض الذي يعتمله المنهج الجنيالوجي لدى فوكو، بنقد نيتشه لثقافة المعيار في المسيحية؛ ولعل هذه من اهم النقاط الواصلة بين فكر الفيلسوفين، إذا ما اعتبرنا أن الأول يرى أن نظام التصنيف هو بالأساس نظام للسلطة، والثاني يجد فيه نظاما للقوة. لذلك نجد نيتشه يقول : "فالحكم حسن لا يصدر بتاتاً عن أولئك الذين تمت معاملتهم بالحسنى، بل الصالحون أنفسهم، أي المتميزون، الأقوياء، الذين رفعم وضعهم وسمو روحهم واعتبروا أنفسهم صالحين، هم الذين حكموا على أعمالهم بأنها حسنة، أي بمقابلتها لما هو سافل وحقير وعامي ورعاعي."[1]

إننا نجد في هذا الوصف الذي خصّه نيتشه للأخلاق الغربية الحديثة، ما يُبرّر وهم القيم التي صاغتها الحداثة وهي تدّعي الانفصال عن الكنيسة، إذ لم تعدو أن تكون في نظره، سوى مفعولات لإرادة القوة؛ وهذا التصور هو ما بصم أثره في فكر فوكو وهو يبحث أثار السلطة على الذات، حيث نعثر على نفس المعنى عندما ينتهي إلى أن وظيفة السلطة الحديثة في علاقتها بالمعرفة، هي الرغبة في تحويل الذات على نحو يسمح بأن تصير موضوعا للتحكم. لذا، يؤكّد على أن "علاقات السلطة–المعرفة ليست أشكالاً معطاة للتقسيم، بقدر ما هي قوالب للتحولات."[2]

يسمح لنا هذا القول، بأن نتأوّل لاسترجاع فوكو للتجربة الإغريقية والرمانية – بشأن حرية الذات في تشكيل حياتها وفق أنماط حرة – على أنها تجربة كتابة نقدية للممارسات المعيارية التي صاغتها السلطة الغربية الحديثة. إذ لم يكن بوسعه أن يقيم هذا النقد من وجهة نظرنا، إلاّ في أفق رؤية إثيقية تُعفيه من بلورة نظرية في الاخلاق. وعلى أساس هذا التأويل يبدو هذا المنعطف كصيغة من صيغ المقاومة للمقاربة المعيارية التي بصمت التجربة الحديثة، حيث تُقام الحدود وترسم الفوارق بين السوي والمنحرف، بين العاقل والمجنون؛ وهي الرؤية نفسها التي سمحت لفوكو بدحض مقولة الذات الحقوقية التي زعمت الحداثة إرساء أسسها؛ ولعل هذا هو ما نستشفّه من قوله " نحن لا زلنا مرهونين إلى صورة محددة عن السلطة–القانون، السلطة–السيادة التي سطّرها مُنظّرو الحق والمؤسسة الملكية. فعن هذه الصورة ينبغي أن نتحرر."[3] هكذا يستخلص فوكو إلى أن الذاتية الحديثة هي ذاتية معيار وليست ذاتية حقوق.

إن مطمح فوكو على طول خطّه النقدي (الأركيولوجي والجنيالوجي)مناهيك عن هذه الدروس للتأويلية التي قدّمها في الكوليج دو فرانس بشأن أهمية ثقافة الذات لدى كل من اليونان والرومان، كان الهدف منها هو تأسيس قطيعة عن أشكال الذاتية الحديثة كما صاغها المشروع المعرفي والحقوقي في العصر الكلاسيكي. وهذا ما يعكس رغبته في بناء ألية للمقاومة تكون بموجبها الذات خارج خطة المعايير الثقافية والسلطوية من جهة، والنماذج المعرفية من جهة ثانية؛ حيث تُفرض الهُويات بشكل لا يسمح للذات بالمشاركة في اختيار شكل حياتها. لذا، لا غرابة أن يصف جيل دولوز هذا النمط من الخضوع بقوله: " يُمرر الصراع من أجل ذاتية حديثة، عبر مقاومة شكلين حاليين للخضوع، يقوم أوّلهما على قولبة الافراد تبعاً

---

[1]) نيتشه (فريديريك)، جنيالوجيا الاخلاق، ترجمة وتقديم محمد الناجي، أفريقيا الشرق 2012، ص، 20.

[2]) Foucault (Michel), Histoire de la sexualité 1 la Volonté de savoir, Gallimard 1976, p. 131.

[3]) ibid, p. 118.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

لمقتضيات السلطة، أما الثاني، فيقوم على دمج كل فرد في هُوية معلومة ومحددة التحديد الكلي والنهائي : وعليه فإن الصراع من أجل الذاتية، هو صراع من أجل حق في الاختلاف، ودفاع عن الحق في التنوع والتغيير."[1]

في سياق هذا التحدي، نفهم أن مرمى فوكو المتمثل في تحرير الذات من خطة سلطة الأنظمة المعيارية لتصير وفقها غير مشدودة بمحددات لا تشارك في بلورتها، هو نفسه المرمى الذي يشغل بال جيل دولوز، حيث الغاية لدى الفيلسوفين تتجلى في خلق قدرة لدى الذات تُبرز من خلالها تفرّدها الهُوياتي بعيداً عن لمسات السلطة. وهذا في نظرهما لن يتأتى إلاّ بإشاعة ثقافة المقاومة لكل الأشكال المؤطّرة للذات.

هكذا يتصور دولوز أن وجود ذاتية حرة هو أمرٌ مرهون بمقاومة دائمة؛ ذلك هو مغزى قوله: "إذا كان من الصحيح أن السلطة تُحاصر حياتنا اليومية و جوانيتنا وفرديتنا أكثر فأكثر، إذا كانت السلطة امست تخترق الأفراد، وتظهر عبرهم، إذا كان من الصحيح أن المعرفة ذاتها أصبحت تفرض نفسها على الأفراد أكثر فأكثر، مُنشئة بذلك تأويلات وقوالب جاهزة مُقنّنة ومنظمة للذات الراغبة، فماذا سيبقى من ذاتيتنا ؟ لن يتبقى أبداً منها شيء، ما دام من اللازم أن تنشئ نفسها كل حين كبؤرة مقاومة."[2]

إذا كانت قراءة دولوز لأعمال فوكو التي خصّصها بهذا الكتاب، وجدت في فكرة المقاومة لازمة أبدية لا يمكن للذات أن تستغني عنها في مواجهة السلطة، فإنه يزكي متلازمة فوكو القائلة: " حيثما توجد السلطة تكون هنالك مقاومة."[3] فالرجل يسكنه همٌّ المراجعة النقدية لمقولات الحداثة الغربية والتي يحكمها التصور الأرسطي بخصوص الهُوية، وهو ذات الهمِّ الذي يشغل فوكو وهو يعالج مسألة الذات لإنقاذها من تدجين المؤسسات [القانونية] وأليالها التحويلية، والتي رسّختها الحداثة الغربية بشكل لم تعد فيه هذه الذات سوى مجموع صور منسوخة عن أصل سلطوي متعالٍ عنها. هكذا يتبدى لنا التقاطع التكاملي بين رغبة دولوز في إعلاء مقولة الهوية المختلفة، وبين مسعى فوكو في تحرير الذات من قبضة الإخضاع والتدجين.

يتعلق الأمر مع فوكو إذن، بالانفلات من قوى الاختراق التي تقيمها السلطة وهي تروم السيطرة على الذات، لهذا نجد أطروحته بشأن المقاومة هي بمثابة دعوة إلى مضاعفة قوى الحياة ضد الأساليب المعيارية. لذا، اختلق هذا المنعطف التأويلي ليعيد التذكير بما أبدعته الحضارات القديمة من تشكيلات وفنون للعيش، سمتها الأساس هي الإرادة في التشريع الحر لشكل الحياة، حيث كان " هدف الفلسفة الإغريقية هو إعطاء الفرد القدرة على العيش بشكل مختلف، جيّد، وبطريقة أكثر سعادة عن الاخرين."[4] من هنا تكمن جمالية الذات القديمة في كونها تحوّل الحياة إلى مشروع ذاتي تنخرط في تطويره وفق أساليب روحية حرة، تسمح في الأخير من بناء شكل حياة بعيداً عن التشكيلات الخارجية.

لقد مكّنتنا هذه المقايسات التي أقامها فوكو بين هذه الثقافات القديمة بشأن كيفيات الاهتمام بالذات من فهم مآل الذات في التصور المسيحي والحديث، حيث تميّزا ببسط قبضة مراقبة وإخضاع الذات لقوالب تحويلية جعلت منها في المرحلة الأولى

---

[1]) دولوز (جيل)، المعرفة والسلطة، مدخل إلى قراءة فوكو، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت/لبنان، الدار البيضاء/المغرب، الطبعة الأولى، 1987، ص.ص. 114-115.

[2]) دولوز (جيل)، المعرفة والسلطة، مدخل إلى قراءة فوكو، مرجع سابق، ص.114.

[3]) Foucault (Michel), Histoire de la sexualité 1, p. 125.

[4]) Foucault (Michel), Subjectivité et Vérité, conférence à Dartmouth Collège, 1980, Vrin, 2005, p. 41.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ذاتاً ناقصة بالنظر إلى كمال الإله، وفي المرحلة الثانية تشكّلت الذات باعتبارها رهينة للقواعد القانونية. هكذا بلغنا مع فوكو أن مطلب إزالة بصمة السلطة عن الذات، لا يكون إلا بتفعيل هذه الأخيرة لاختياراتها التي تؤسّس بشكل إثيقي وليس بأمر أخلاقي، حيث استمرارية "جهزوت" السلطة لا يكون إلاّ في أفق البقاء على صيغة ذات باعتبارها موضوعاً.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

لائحة المراجع والمصادر:

✓ **بالعربية:**

- دولـــــــــــوز (جيل)، المعرفة والسلطة، مدخل إلى قراءة فوكو، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت/لبنان، الدار البيضاء/المغرب، الطبعة الأولى، 1987.
- فوكو (ميشال)، تأويل الذات، دروس ألقيت في الكوليج دي فرانس 1981–1982، ترجمة الزواوي بغوره، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 2011.
- فوكو (ميشال)، هم الحقيقة، مختارات، ترجمة مصطفى المسناوي وآخرون، منشورات الاختلاف، الطبعة الجزائرية الأولى 2006.
- نيتشه (فريديريك)، جنيالوجيا الاخلاق، ترجمة وتقديم محمد الناجي، أفريقيا الشرق 2012.

✓ **بالفرنسية:**

- Foucault (Michel), Histoire de la sexualité 1 la Volonté de savoir, Gallimard 1976.
- Foucault (Michel), Qu'est-ce que la critique ? suivi de « la culture de soi », Vrin.
- Foucault (Michel), Subjectivité et Vérité, conférence à Dartmouth Collège, 1980, Vrin, 2005

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/